واعظ الرشيد [١]

قال الفضل بن الربيع :

حجّ هارون الرشيد أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجت مسرعاً ، فقلت : يـــا أمـــيرَ المؤمنين ؛ لو أرسلت إليَّ لأتيتُك فقال : ويحك قد حكَّ في نفسي شيء ، فـــانظر لي رجلاً فقلت : ها هنا سفيان بن عُيَينة [٢] ، فقال ، امضِ بنا إليه ، فأتيناه فقرعـــتُ الباب ، فقال : مَن ذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُك ، فقال له : خُذْ لما جئناك له رَحمك الله. فحادَثَـــه ساعة ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ فقال : نعم فقال : يا عباسيّ ، اقضِ دينَه.

فلما خرجنا قال لي : ما أغنَى صاحبُك عني شيئاً. انظر لي رجلاً أسأله ، فقلت: ها هنا عبد الرزّاق [٣] بن همام. قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه فقرعت الباب فقال :من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مُسرعاً ، فقال : يا أمـــير المـــؤمنين لـــو أرسلتَ إليَّ لأتيتك ، فقال : خُذْ لما جئناك له ؛ فحادثة ساعة ، ثم قال لـــه عليـــك دَين؟ قال نعم قال : يا عباسيّ : اقضِ دينه .

(1) عن كتاب المختارات للمطالعة العربية.

(2) سفيان بن عُيَينة : حافظ ثقة ، واسع العلم كبير القدر ، قال الشافعي عنه : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، توفي سنة ١٩٨هـ

(3) عبد الرزاق بن همام : من حفاظ الحديث الثقات ، توفي سنة ٢١١هـ

فلما خرجنا قال ، ما أغنى صاحبُك عني شيئاً ، انظر لي رجلاً أسألُه ، قلت : ها هنا الفُضيل بن عياضٍ [1] ؛ قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناه ؛ فإذا هو قائم يصلي ، ويتلو آية من القرآن يردِّدُها، قال : اقرع الباب فقرعتُ الباب ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلتُ : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ، فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعتُه ؟ فنـــزل وفتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفأ الـــسراج ، ثم التجـــأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هـــارون قبلي إليه.

فقال : يالها من كف ، ما ألينها إن نَجَت غداً من عذاب الله عزّ وجلّ. فقلـــت في نفسي : ليكلمنّه الليلة بكلام من قلب نقيٍ ، فقال له: خُذ لمـــا جئنـــاك لـــه – رحمك – الله فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبـــد الله ومحمد بن كعب القُرَظي ورجاء بن حَيوَة ، فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا الـــبلاء ، فأشيروا عليّ فعدَّ الخلافة بلاء. وعددتَها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتَ النجاة من عذاب الله فصُمِ الدنيا ولـــيكن إفطارك منها الموت. وقال محمد بن كعب : إن أردتَ النجاةَ من عذاب الله فلـــيكن كبير المؤمنين عندك أباً ، وأوسطُهم عندك أخاً ، وأصغرُهم عندك ولداً ؛ فوقِّر أباك ، وأكْرِم أخاك ، وتحَنَن على ولدك.

(1) الفُضيل بن عياضٍ : من أكابر العباد والصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، توفي سنة ١٨٧هـ

وقال له رجاء بن حَيْوَة : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عزّ وجلّ فأحب للمسلمين ماتحب لنفسك واكره لهم ماتكره لنفسك ، ثم مُت إذا شئتَ وإني أقـــول لك : إني أخافُ عليك أشد الخوف يوم تَزِل الأقدام ، فهل معك – رحمـــك الله – مثل هؤلاء ، أو من يشير عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديداً ، حتى غُـــشِيَ عليه . فقلت له : ارفُق بأمير المؤمنين رحمك الله.

فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ؛ اذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصَرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك.

قال : فلما قرأ الكتاب طَوَى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ؛ فقـــال له : ما أقدمك ؟ قال : خلدون قلبي بكتابك ؛ لا أعودُ إلى ولاية حتى ألقى الله عـــزّ وجلّ. فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له : زِدني – رحمك الله – .

فقال له : يا أمير المؤمنين إن العباس عمّ النبي جاء إليه فقال له : يا رسول الله ؛ أمّرني على إمارةٍ . فقال له النبي : إن الإمارة حسرةٌ وندامة يـــوم القيامـــة ؛ فـــإن استطعتَ ألا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون بكاء شـــديداً ، ثم قـــال : زدني – رحمك الله – .

فقال : ياحسَنَ الوجه ، أنت الذي يسألك الله عزّ وجلّ عن هذا الخَلـــقِ يـــوم القيامة ؛ فإن أردت أن تَقِيَ هذا الوجهَ من النار ، فإياكَ أن تُصبِحَ وتُمسيَ وفي قلبك غِشٌ على أحد من رعيتِك ، فإن النبيّ ﷺ قال : " من أصبح لهم غاشّاً لم يَرِحْ رائحةَ

الجنة ". فبكى هارون ، وقال له عليكَ دَين ؟ قال : دَيْنٌ لربي لم يحاسبني عليه ؟ فالويل لي إن سألني ؛ والويلُ لي إن لم أُلهم حُجّتي ، قال : إنما أعني من دين العباد قال : إنّ ربي عزّ وجلّ لم يأمرْني بهذا ، إنما أمرني أن أُصَدِّق وعده وأُطيع أمرَه ، فقال : وما خلقت الجِن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريدُ منهم من رِزقٍ وما أريد أن يُطعمون ، إن الله هو الرّزّاقُ ذو القُوةِ المتين.

فقال له : هذه ألف دينار ، خُذها فأنفِقها على عيالك ، وتقوَ بها على عبادةِ ربك. فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النَّجاة ، وأنت تكافِئني بمثل هذا سلمك الله ووفقّك ، ثم صَمَتَ فلم يكلمنا.

فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : يا عباس ، إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا ! هذا سيدُ المسلمين.

فدخلت عليه امرأةٌ من نسائه ، فقالت : يا هذا ؛ قد ترى ما نحنُ فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به ، فقال لها : مَثَلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كَسبه ، فلما كَبِرَ نحروه فأكلو لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال : نَدْخل فعسى أن يقبل المال ، فلما علم الفضَيْل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه.

قال الفضيل : فبينما نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء ؛ فقالت : يا هذا ، قد آذيْتَ الشيخَ الليلة ؛ فانصرِف رحمك الله فانصرفنا.